دمشق في أواخر العهد المملوكي

من كتاب

«نُزهة الأنام في محاسن الشَّام»

لأبي البقاء أبي بكر بن عبد الله بن محمد البَدري

(توفي 894 هـ / 1489 م)

أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد ، أبو البقاء ، تقي الدين البدري الدمشقي المصري الوفائي . أديبٌ عارف بالتاريخ والشعر . ولد بدمشق عام 847 هـ وسكن القاهرة ، ثم تنقل بينها وبين مكة والمدينة والشام ، وكان يتكسَّب بالتجارة ، وتوفي بغزّة عائداً من الحج عام 894 هـ .

ترك البدري عديداً من المؤلفات الأدبية ، من أشهرها : «راحة الأرواح في الحشيش والراح» و «غرر الصَّباح في وصف الوجوه الصِّباح» و «المطالع البدريّة في المنازل القمرية» و «نزهة الأدباء وسلوة الغرباء» و «نُزهة الخاطر وقُرّة الناظر» و«روضة الجليس ونزهة الأنيس» . غير أن أهمها وأشهرها هو كتابه الذائع الصيت «نُزهة الأنام في محاسن الشام» ، الذي أتم تصنيفه عام 887 هـ في عهد السلطان المملوكي البُرجي الأشرف قايتباي ، والذي يعتبر بحق أحد أفضل كتب «المحاسن» في فنون الجغرافية الإقليمية بأواخر عهد المماليك .

من المؤكّد أن المؤلف قد أمضى شطراً طويلاً من حياته بدمشق وعرفها معرفة وثيقة ، كما ينعكس بجلاء في مصنَّفه ، الذي قدّم لنا فيه صورة حيّة لدمشق بأواخر القرن التاسع الهجري في خواتيم أيام الدولة المملوكية ، فرسم لها مشاهد جديرة بالاهتمام ، وتجاوز ذلك إلى المواضع القريبة منها ، وتناول بالوصف أنهارها ومساجدها وحمّاماتها ومتنزهاتها وأسواقها وقلعتها ، كما لم يهمل الحديث عن قراها وأرباضها المشهورة بأزهارها ونباتاتها وأشجار فاكهتها .

وفيما يتعلق بالجانب الأول ، فهو يورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية الهامة ، ثم يختتم كتابه بذكر من عاش بدمشق من الصحابة والمشاهير ، وعن مقابر المدينة وما بها من أضرحة ومزارات معروفة . أما توزيع مادّة الكتاب فغير متجانس ، ويلوح أن المؤلف قد افتتن بصورة خاصة بالأشجار والأزهار والبقول والثمار التي تنمو بدمشق ونواحيها ، فخصّص لها ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً ، وهو ينقل عن مصنّفات مختلفة في الطب والنبات حول الفوائد الطبية والغذائية لكل ما يذكره من نباتات .

أما أسلوبه الكتابي فلا يخلو أحياناً من التكلّف ، وتنتشر فيه الاستشهادات الشعرية وفقاً للموضوع الذي يعالجه . وهو بالرغم من إقامته بدمشق ومعرفته الجيّدة بجامعها الأموي ، فقد آثر عند وصفه له أن يعمد إلى النقل من رحلة ابن جُبير الشهيرة التي ترقى إلى القرن السادس الهجري ، وهي ظاهرة منتشرة – كما نعلم – لدى جميع الجغرافيين العرب .

ويلوح للدارس أن نص البدري قد اكتسب حظاً وافراً من الشهرة بالشام ، فنقل عنه غير واحد من البلدانيين اللاحقين . وبشكل عام ، يبقى كتابه هذا أحد أهم المصادر عن مدينة دمشق المملوكية ، ولا غنى عنه لكل من يتصدّى للبحث في تاريخها المدني بتلك الفترة .

طُبع الكتاب للمرة الأولى في المطبعة السلفيّة بمصر عام 1341 هـ ، ضمن منشورات المكتبة العربية ببغداد ، بعناية صاحبها نعمان الأعظمي . وهي طبعة سيئة مشحونة بالأغلاط . ثم صدرت في بيروت عن دار الرائد العربي عام 1980 طبعة منقولة حرفياً عن طبعة بغداد زادتها ضغثاً على إبّالة ، وبقي الكتاب – على أهميته – إلى يومنا هذا بغير طبعة علمية تستوفي حقه من الضبط والتحقيق .

وكنّا في العام 1998 قد نشرنا منه ما يتعلّق بالتاريخ الطبوغرافي لدمشق في كتابنا : «دمشق الشّام في نصوص الرّحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمُسلمين ، من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة» .

وهذا ما حدا بنا ها هنا إلى إعادة استخلاص فصول كاملة من الكتاب في نشرتنا الحاضرة ، وتصحيحها مع التعليق عليها قدر الإمكان . مع التنبيه إلى أننا انتخبنا من الكتاب كل ما يتعلق بالطبوغرافيا التاريخية والمعلومات البلدانية فقط ، وأهملنا الفصول المطوّلة التي أسهب فيها المؤلف بذكر النباتات وفوائدها الطبّية ، الأمر الذي أثقل على الكتاب وشوّش منهجيته وتبويبه . وكذلك أسقطنا من اعتبارنا مطلع الكتاب الذي يذكر محاسن إقليم الشام وأصل بناء دمشق وتاريخها القديم ، مع وصف الجامع الأموي ، إذ كنا قدّمنا القول أن ذاك برمّته منقول ، وليس يتّسم بالأصالة .

وشرعنا في النقل من حيث تبدأ رواية البدري لمشاهداته الشخصية ، بدءاً من وصفه لقلعة دمشق ، ومروراً بذكر أنهارها ومحلاّتها وأسواقها ومتنزهاتها وأرباضها وقراها وجبلها ، وانتهاءً بذكر صناعاتها ومقابرها ومن دُفن فيها من الأولياء والصالحين . وتسهيلاً لقراءة النص قمنا بتبويبه إلى فقرات استهللناها بعناوين من عندنا .

هذا ، وممّا وجدنا فيه إمعاناً في فائدة هذا البحث وأهميّته ، كان دراسة مواقع الأماكن التي ذكرها البدري قبل ستة قرون وثلث القرن ، وما ينطبق عليها في عصرنا بدمشق . فقمنا بذلك على أرض الواقع ، متوخّين الدقّة والتحرّي حسب الإمكان ، فكان هذا الجزء من العمل يتّسم بطرافة ومتعة قلّ نظيرهما ، ونحسب أننا قد أضفنا به فوائد جمَّة حول الطبوغرافيا التاريخية للمدينة .

المصادر :

الضوء اللامع للسخاوي ، 11 : 41 ، 189 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 505–506 .
الأعلام للزركلي ، ط 2 ، 41 .
دمشق الشام في نصوص الرّحالين للإيبش والشهابي ، 2 : 633 .

نزهة الأنام في محاسن الشام

تاليف

ابي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي

من علماء القرن التاسع (ولد سنة ٨٤٧)

صاحب الديوان المشهور ، وتاريخ « تبصرة اولى الابصار » و « سحر العيون »

طبع على نفقة

المكتبة العربية - ببغداد

لصاحبها : نعمان الاعظمى

و حقوق الطبع محفوظة له

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة : ١٣٤١

نزهة الأنام للبدري ، الطبعة الأولى بالقاهرة 1341 هـ

قلعة دمشق

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فانها قدر مدينة . وبها ضريح السيد الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه . وبها جامع وخُطبة كالمدينة فإنها بفرد خطبة لا غير ، وخارج المدينة الخطب الكثيرة يعسر الآن علينا تعدادها . وبها حمّام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع . وبها دار الضَّرب التي تُضرب فيها النقود . وبها الدّور والحواصل ، وبها الطارمة التي ليس على وجه الأرض أحسن منها ، كأنها أُفرغت بقالب من شمع ينظر الرائي أعلاها فيحسن نظره وإن طال مرآه .

وهي تسامتُ رؤوس الجبال . يقال إن تمرلنك لما أن حاصرها وعجز عنها أمر أن يُنقب تحتها وتُقطع الأشجار وتعلّق بها ، حتى إذا انتهى تعليقها أطلق النار فيما تحتها من الأخشاب وظن أنها تفسخ بذلك وتسقط شَذَر مَذَر فيبلغ مُراده من أخذ القلعة . فلمّا عمّت النار فيما تحتها بركت بصوت أزعج الوجود كمايبرك الأسد ، فمن ثَمّ سمّوها بالأسد البارك ، وهى الآن على الثُّلُثين من علوّها .

وبالقلعة آبار ومجارٍ للماء ومصارف ، بحيث إذا وقع الحصار وقُطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه .

وبها يمر نهر (بانياس) وينقسم فيها قسمين ، يستمر أحدهما على حاله طاهراً للمنافع والاستعمال ، والآخر تنسحب عليه الأوساخ والقاذورات ، وهو المسمى بقُلَيْط ، يمرّ تحت الأرض بنحو من قامتين لتشعّب الماء الطاهر فوقه يميناً وشمالاً ، حتى في بعض الأراضي يبلغ سبعة مجارٍ من الماء العذب ليس لأحدها اختلاط بالآخر .

ومصارفهم تسقط على نهرقليط ، ويمرّ في المدينة إلى أن يخرج من الباب الصغير ، ويتصل بمحلّة (المزّاز) فيضمحلّ فيما يليها من الأراضي التي تزرع الكرسنّة والفصّة والبيقية والقنّب وما أشبه ذلك . وغالب ما يُسقى به القنّب ،

وهو أبيض أملس كالرِّماح في الطول مجوّف لا عُقَد به ، يُصبُّ الماء من رأس الواحدة فيجري من آخرها ، وقشره يُعمل منه الخيوط والحبال ، وتورى بالقنّب النار وهويقوم مقام الشعشاع والطَّرفاء لكنه ألطف منهما وأسرع وقيداً . كما ان الشِّيح أحسن من الحلفاء بعرفه الذكي أخضر وناشفاً . ويقال إن القنب هذا يُعمل من ورقه الحشيش إذا أضيف إليه الورق البرّي . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا (راحة الأرواح في الحشيش والراح) فليُراجع . انتهى .

(نزهة الأنام 60-62)

تحت القلعة

ومن محاسن الشام تحت قلعتها [1]، فإنها منهل للغريب ومرتع للقريب ، وهي ساحة سماوية كبركة الرّطلي في الوسع لاجتماع البَريّة ، تحفّها الدّور وتعلوها القصور ويلحقها كل ما يرومه الإنسان وتشتهيه الشفة واللسان ، لايحتاج فيها سكانها لحاجة من المدينة ولا لجيرانها .

فيها دار البطيخ الذي يُباع فيه جميع فواكه البلد [2]. وبه العين المشهورة المُجمع على برودة مائها وعذوبته وخفّته . وبتحت القلعة سوق للقماش المذروع وسوق قماش للمخيط . أحدهما للرجال والآخرللنساء . وبها سوق للفرا والعبي وغيرذلك . وبها سوق السقطيين وسوق النحاس ، وبها سوق السكاكينيين وبها سوق القربيين وبه للأرميين ، وبها سوق قماش الخيل والبغال والبهائم والأغنام ، وبها سوق القشّاشين وبها سوق المدهون والخضريين ، وبها سوق المحايريين والنجّارين والخرّاطين ، وبها سوق النقليين وبها دار الخضر وبها سوق المناخليين والزجّاجين .

---

(1) موقعها اليوم ينطبق على الزّرابلية والسّنجقدار وسوق الهال وسوق العتيق .
(2) موقع دار البطيخ هذه في أيامنا عند سوق القرماني جنوبي مدرسة ست الشام .

وأما ساحة تحت القلعة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما به من المتعيّشين والوظائفية . ويتخلّل بينهم أرباب الحلق والفالاتية والمضحكون وأصحاب الملاعيب والحكوية والمسامرون [و]كل ما يتلذّذ به السمع ويسرّ العين وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون ، لكن المساء أكثر اجتماعاً ويستمرّون إلى طلوع الثلثين . وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرقة بأعلى القلعة ، يضربون الثلث الأول كل واحد منهم ضربة ، والثلث الثاني من الليل يضرب كل واحد ضربتين ، والثلث الآخرمن الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الأموي ، ويعلّق لهم قنديل الإشارة ، فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات ويسوق الثلثين من التسبيح والأذان الأول إلى السلام ينتهي الضرب .

وبها خطبتان : الأولى بآخرها بالمدرسة المؤيّديّة ، والثانية بصدرها في جامع يلبُغا [1] . وهو من أحسن الجوامع ترتيباً ومتنزّهاً ، بصحنه بركة ماء مربّعة داخلها فسقية مستديرة بها نوفرة يصعد منها الماء قامة ، ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملوّن يصل الماء إلى قطوفها الدّانية . وبجانبيها حوضان فيهما من أنواع الفواكه وأجناس الرياحين . وله شبابيك تطل على جهاته الثلاث : الأولى على تحت القلعة من جهة الشرق ، والجهة الثانية تطل على بين النهرين وهي الغربية ، والجهة القبلية تنظر إلى نهر بردى وما هناك من الأشجار والأزهار ، وهناك شجرة حور يحتاط بها أربعة رجال فلا ينظر الواحد لمن يقابله لعظم ساقها . وللجامع ثلاثة أبواب : الأول الشرقي وهو في صدر تحت القلعة ويسمى باب الحلق ، والثاني شماليه يخرج إلى الميضا ويسمى باب الفرج ، والثالث غربي يُنحدر منه في درج إلى أول الوادي ويسمى باب المنزه . انتهى .

(نزهة الأنام 62-65)

---

(1) كان جامع يلبُغا الشهير يقوم إلى الجهة الشمالية من منطقة بين النهرين (ساحة المرجة حالياً) ، بناه نائب الشام المملوكي يلبُغا اليحياوي عام 847 هـ ، وكان ثاني أكبر جوامع دمشق - بعد الأموي مباشرة - ومن أبهاها وأفخمها . هُدم عام 1960 لأسباب أكثر من تافهة ، ولم نُدركه مع الأسف إلا في الصور ، فكنا لم نبصر النّور بعد .

بين النهرين

ومن محاسن الشام (بين النهرين) [1]، وهومبتدأ الوادي يشتمل على فُرجة سماوية بها دور وقصور وسويقة بها حانوت طبّاخ وصاجاتي وقطفاني وفُقّاعي وحواضري وفاكهاني وشوّا وقلاّيين وسكرداني ونقلي وقاعة لبن وعدة للجلبية وحمام يشرح صدور البريّة وقنطرة يُتوصل منها إلى جزيرة لطيفة من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين، والمقسوم منه نهر الصالح المعتقد الشيخ أرسلان أعاد الله علينا من بركاته وعلى المسلمين طول الزمان . وبها مقصفان للبطّالين فيما بين المقسمين وقبالتهما زاوية للشاب التائب ، يُقام بها السبت والثلاثاء من الأوقات بالوعاظ والدواخل ما يصير الحاضر غائباً . ويتوصل إلى زقاق الفرّايين المشتمل على قاعات وأطباق وغُرف وكم رواق ، الجميع يطل على بين النهرين . ولكل مكان من ذلك ناعورة يستلذّ صاحبها بأنسها وتجلب له الماء إذا سمع حسّها .

(نزهة الأنام 65-70)

الشَّرَفان

ومن محاسن الشام شرفاها [2] وما حويا من المناظر والقصور ، وما فيهما من الولدان والحور . وتقرّب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس ، رغبة في جوار المجرّد الفقير البائس . ورتّبوا له من الخبز واللحم والطعام ، والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام . فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن ، فكيف لاينبعث إلى طلب العلم ويتحرّك من فهمه ما سكن !

---

(1) موقعها اليوم ينطبق على ساحة المرجة .

(2) الشرف الأعلى هو المنطقة التي تمتد في أيامنا من البحصة غربي ساروجة إلى فندق الميريديان والأركان ، أما الأدنى فمن ساحة المرجة والسرايا إلى التكيّة والمعرض .

ويقال إن بمدرسة الكُججانية قُبّة بها طاقات بعدد أيام السنة ، والشمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل إليها وهذا من حسن الهندسة .

وأما جامع تنكز [1] فإنه في الشرف الأدنى ، وهو من الغايات هندسة وبناء فيه عشرون شباكاً على خط الاستواء يشرف على الأنهار ومرجة الميدان وما حوى . وبوسط صحنه يمر نهر بانياس يتوضأ منه الناس ، وبه ناعورتان يملآن ويفرغان إلى حوضين بهما سائر الأشجار ، وجميع الرياحين والأزهار . وبينهما بركة مربعة بها كأس في غاية التدوير ، يجري الماء إليها من النواعير . فهو متنزه يُقصد وللمصلّي معبد . وفي كل شرف منهما عدّة من المدارس والمساجد ، ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء فأظهروا فيها أنواع المفاسد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكل شرف يطل على (الشَّقرا) و (الميدان) ، و (القصر الأبلق) و (المرجة) ذات العيون والغُدران . وما أحسن قول الشيخ شمس الدين محمد النّواجي الشافعي في وصف الشرف الأعلى :

ألا إن وادي الشام أصبح آية ... محاسنه ما بين أهل النُّهى تتلى
وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل ... دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

ونقلتُ من خط العلاء علي بن المشرف المارديني في غلام اسمه علي في الشرف الأعلى :

جنى عليّ ولكنَّ وجهَهُ حَسَنٌ ... وفعله المُرتضى يحلو به الشَّغَفُ
بدرٌ من الشَّرَف الأعلى له نَسَبٌ ... وهل لغير عليٍّ يُنسبُ الشَّرَفُ

---

(1) هذا أيضاً كان من محاسن جوامع دمشق في العهد المملوكي ، فلم يبق منه في عصرنا سوى منارته الرائعة وقسم يسير منه ، أما بناؤه الأصلي فقد «قُطش» باقتراح بعض عباقرة الهندسة ، الذين لو هاجروا من بلادنا إلى البرازيل لأراحوا واستراحوا !

الأمير مجير الدين محمد بن تميم يصف الميدان :

عجباً لميداني دمشق وقد غدا ... كلٌّ له شرفٌ إليه يؤول
والنهر بينهما لغير جناية ... سيفٌ على طول المدى مسلول

وقال ابن الشهيد في (الشقراء) و (الميدان) :

ولم تحك جلّقَ في المحاسن بلدةٌ ... قولٌ صحيح ما به بهتانُ
ولئن غدوتَ منافساً في غيرها ... ها بيننا (الشقراء) و(الميدان)

ومن تحرير القيراطي قوله في وصف الشقراء :

سرْ بي إلى الشقراء من جلّق ... واثن إلى الخضراء منك العنانْ
فيها جنان لو رأى حُسنها ... أبو نواس لَلَهَا عن (جنان)
وانزل بواديها الذي تُرْبُه ... مسكٌ وحصبا النهر منه جُمان

(نزهة الأنام 70-73)

المرجة

ومن محاسن الشام مرجتها [1] ، قرأتُ كتاب وقف تربة السلطان الملك الظاهر (برقوق) ، سقى الله عهده ، الكائنة بالصحرا خارج (باب النصر) من (القاهرة) المحروسة ، وهومتصل الثبوت إلى آخر وقت تسجيله على بعض القضاة

(1) المقصود بهذه المرجة ما كان يُعرف حتى النصف الأول من القرن العشرين بمرجة الحشيش ، أما قبل ذلك فبالمرج الأخضر ، وفي عهد نور الدين ميدان ابن أتابك . وموقعها اليوم يمتد من التكيّة السليمانية إلى المتحف الوطني والمعرض حتى ساحة الأمويين . وفي حوزتنا مجموعة صور فوتوغرافية قديمة لهذه المرجة قبل إعمارها ، نقلنا بعضها هنا .

الشافعية ؛ من جملته طاحون الشقراء بمرجة (دمشق) المحروسة ظاهر قصر الملك الظاهر أبي الفتوحات (بيبرس) سقى الله عهده ، بالقرب من (زاوية الأعجام) ، ويليها قصبة سوق عدّة حوانيتها أحد وعشرون حانوتاً وعلوها الطباق المطلة على المرجة المذكورة وبآخرها المسجد المطل على نهر بردى . انتهى .

قلتُ : وأدركتُ الطاحون غير دائرة . ولقد هدمها وكيل المقام الشريف برهان الدين النابلسي المعروف بابن ثابت في أوائل دولة السلطان الملك الأشرف (قايتباي) خلّد الله تعالى ملكه [1] . فعلى هذا كانت المرجة عامرة آهلة وهي من المحاسن التي لا تُدرك ، وبعضهم يشبّهها بصدر الباز ، كأنه شبهها به لأن الوادي ينضمّ من رأسها ويعلوه جبلان وشبّه هذين الشرفين بالأجنحة .

ونقلتُ من خط التقي ابن حجّة قوله فيها :

ذكرتُ أحبّتي بالمرج يوما ... فقوّت أدمعي نيران وهجي
وصرت أكابد الأحزان وحدي ... وكل الناس في هرجٍ ومرجِ

ومن بديع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله فيها :

ومرجةٌ في وادٍ يروقك روضها ... ولا سيّما إن جاد غيث مبكر
بها فاض نهر من لجين كأنه ... صفائح أضحت بالنجوم تُسمَّر
تلاحظها عين تفيض بأدمع ... يرقرقها منه هنالك محجر
وكم غازلته للغزالة مقلة ... تسارق أوراق الغصون فتنظر
إذا فاخرته الريح ولّت عليلة ... بأذيال كثبان الرُّبا تتعثّر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا ... به الروض يحيى وهو لا شكَّ جعفر

(نزهة الأنام 73-76)

(1) يتضح من قول البدري أن تأليف كتابه كان في أيام سلطنة الأشرف قايتباي ، كما قلنا .

الخلخال والمنيبع

ومن محاسن الشام محلّتا (الخلخال) و (المنيبع) ، فمحلة (الخلخال) [1] بها سويقة وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الأتراك ، وكذلك المنيبع والشرفان وبه يدق طبلخاناتهم ، وبها زاويتا الأدهمية والحصوية وهي تحفّ بالناس والأعيان .

وما أحسن قول الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة في وصف الخلخال :

يا حبّذا يومي بوادي جلّق ونُزهتي مع الغزال الحالي
من أوّل الجبهة قبّلتُه مرتشفاً لآخر الخلخالِ

و(المنيبع) [2] محلة وسويقة وحمام وأفران وبها مدرسة (الخاتونية) [3] وهي من أعاجيب الدهر ، يمر بصحنها نهر (بانياس) ونهر (القنوات) على بابها ، ولها شبابيك تطل على المرجة وبها ألواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدّة خلاوي للطلبة ، وبجوارها دار الأمير الأصيل (ابن منجك) رحمه الله تعالى ، وبها سكن القاضي بهاء الدين بن حجّي الشافعي رحمه الله تعالى . وهذه المحلّة من محاسن دمشق وشرفها . انتهى .

---

(1) محلّة الخلخال موقعها في أيامنا كما نظن حي الحلبوني ومحطّة الحجاز ومُبتدأ حي زقاق الجنّ خلفهما ، ووراءها كانت اللؤلؤة الصغرى وقينية اللتين تنطبقان على زقاق الجنّ ، والحمرية (الحميريين) التي تنطبق على منطقة المجتهد ودوّار كفر سوسة .

(2) المُنَيْبع محلّة قديمة بدمشق ، بدلالة اسمها الآرامي الذي يعني : عين الماء المتدفقة . تقع إلى الغرب من المدينة ، إلى الجنوب من نهر بردى ، ويمر بها نهرا بانياس والقنوات . موقعها في أيامنا يمتدّ من الحلبوني والبرامكة والجامعة حتى الجمارك غرباً بأعلى ساحة الأمويين . وهي تواجه بذلك الشطر الغربي للشَّرف الأعلى ، وبينهما مجرى بردى .

(3) المدرسة الخاتونية البرانية ، إحدى آثار العهد الأيوبي (الدارس ، 1 : 502) . كان موقعها عند مبنى التلفزيون بساحة الأمويين حالياً . ذكر ابن كثير في حوادث سنة 581 هـ : الخاتونية البرّانية التي على القنوات بمحلّة صنعاء دمشق ، ويُعرف ذلك المكان الذي هي فيه بتلّ الثعالب .

نقلتُ من خط الشيخ شمس الدين محمد النواجي في وصف المنيبع :

يا سادة اهدوا محاسن جلّق — لطرفي ففاضت بالبكا عبراتُ
مُنَيْبعُ جفني فوق ربوة جبهتي — يزيدُ ودمعي بعدكُم قنواتُ

(نزهة الأنام 76-77)

متنزّه الجبهة

ومن محاسن الشام المتنزّه المسمى بالجبهة [1] ، وهي أرض مربّعة قدر فدّانين عليها سقائف تظلُّها من غير طين بين شجر الصفصاف والجوز والحور ، وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته مع البُرَك والبحرات بالنوافر وهي على جنب نهر (بردى) ، وبه النواعير وبها حوانيت للشّرايحية والجزّارين والطبّاخين والحواضرية والأقسماوية والنكاهين وغير ذلك . وبها مسجد ومدرستان ومربط للدواب ، ومقاصفيّة واقفون في خدمة الناس . وعندهم اللُّحف والأنطاع والعبي لمن يبيت .

وفيها يقول التقي ابن حجّة الحموي (دوبيت) :

لما ملأ (الجبهة) بالأنوار — لُمْناه على ذلك خوف العار
قال انصرفوا سئمتُ من بلدتكم — و (الجبهة) من منازل الأقمار

وفيها يقول علي بن سعيد صاحب (المرقص والمطرب) وقد رآها عند شمس الأصيل قُبيل المغرب :

---

(1) ينطبق موقع الجبهة في عصرنا ، كما يتبيّن ، على ساحة الأمويين ومبتدأ مرجة الحشيش ، أي عند بناء المسرح القومي والمسبح البلدي وموضع مطعم النبلاء . ذكرها ابن طولون الصالحي في مطلع القرن العاشر في كتابه المخطوط «ذخائر القصر» ، وذكر قطية معها .

إن للجبهـــة في قلبـــي هـــوى		لم يكـن عنـدي للوجـه الجميـل
يرقــص المـاء بهــا مــن طــرب		يميـل الغصـن في الظــل الظليــل
وتــودّ الشــمس لــو بــاتت بهــا		فلـذا تصفـرّ في وقـت الأصيـل

ويعلوها نهرا (القنوات) و (بانياس) المنحدر الماء إليها منه ، ومن فوق النهـر حمـام النُّزهـة [1] وإلى جانبه مقصف بحوانيت فيها البضائع ويمر بوسـطه نهـر القنوات . ويتوصل منه إلى زاوية الحريري المشهورة وليس أبدع من منظرها . وينحدر منها الماء إلى المتنزه المسمّى (قطْية) [2] ، وهي مقصف على نهر بردى وعليه النواعيرمتشعبة أراضيه بجداول الماء والبرك والبحرات . وبه قصبة ذات حوانيت يعلوها أربعة أطباق ومربط للدواب . وعند المقاصفي العبي واللحف والأنطاع حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل ، وهذا مما لا يوجد في بلد من البلاد .

أنشدني قاضي القضاة عز الدين أحمد الكتّاني الحنبلي فيها :

أيا حُسنَ سلسال علـى نهـر قطية		إذا ما جرى فيها نخوض ونلعـبُ
تهـــدده أغصانهـــا برؤوســـها		فينظر من طرف خفيٍّ ويهــربُ

وقال ابن عماد الأندلسي وأبدع :

نهـرٌ يهيـمُ بحُسنه مـن لـم يهـم		و يجيـد فيـه الشِّعرمن لـم يُشـعر
فكأنــه وكــأن خُضــرة شــطّه		سيفٌ يُسلُّ علـى بسـاط أخضـر

(نزهة الأنام 77-80)

(1) كان الحمّام بأسفل جسر الأياسة (حديقة الجاحظ) ، وعُرفت أرضه حتى منتصف القرن العشرين ببستان الحمّام ، وقامت فيها بعصرنا مكتبة الأسد المطلّة على ساحة الأمويين .
(2) ينطبق موقعها في أيامنا على الأرض التي قام بها فندق الشيراتون ، مع جزء من ساحة الأمويين . ومن جميل الاتّفاق أننا عندما كنا نزور مقهى «النّيربين» في الفندق المذكور ، المقام على نسق متنزّهات دمشق القديمة بالأشجار والمياه الجارية ، نتخيّل أننا في قطية .

متنزّه النيربين

ومن محاسن الشام المتنزه المسمى بالبهنسية . وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار مع عيون الماء ، وتظهر منه إلى (مرجة جسر ابن شوّاش) [1] . به مقاصفي وبيع وشراء ، ويتوصل منه إلى أراضي (حمص) [2] ما بين رياض وغياض . ويعلوها محلة (النيربين) [3] ، وهي [من] أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها ، حسنة الأثمار كثيرة الأزهار وبها سويقة وحمّام يقال له (حمّام الزمرّد) وجامع بخطبة ، وهي مسكن الرؤساء والأعيان وبها دار قاضي القضاة نجم الدين يحيى بن حجّي وفيها قتل رحمه الله تعالى ، ومنها تدخل إلى أرض الرَّبوة .

وأعجب من هذا أن السالك إلى الرَّبوة من حين يخرج من باب (جامع يلبغا) يمشي بين أشجار وأثمار ومياه وظل ظليل ، لا يمكن أن يرى الشمس إلا أن يقصد رؤيتها . انتهى .

---

(1) أي عند بساتين كيوان ، ما بين فندق الشيراتون وزقاق الصخر الواقع إلى الشرق من مستشفى المواساة ، التي قامت على بستان السّيلون . وكانت هذه المرجة على حالها إلى أيامنا ، إلى أن بُدئ مؤخراً بتجهيزها لبناء مجموعة من الفنادق ، في بساتين كيوان على ضفّة بردى إلى الشرق من طاحون الرّهبان (المعروفة بطاحون كيوان في العهد العثماني وحتى يومنا الحاضر) ، وكانت من ضمن بساتين الوادي التحتاني . أما الجسر فيُنسب إلى الحَسَن بن علي بن شوّاش المُقرئ (437 هـ) ، وما زال باقياً إلى أيامنا وله أربع قناطر حجرية ، على وضعه السابق بعد ترميمه في عام 886 هـ كما يذكر المؤرخ ابن طوق .

(2) انفرد البدري بذكر أراضي حمص هذه بين من أرّخ لدمشق وخططها ، باستثناء الأديب الرّحالة تقيّ الدين بن حجّة الحموي ، الذي ذكر في رحلته لدمشق عام 791 هـ : نهر حمص . ويُستخلص من قوله ومن قول البدري أنه فرع من نهر بردى يتفرّع منه في منطقة (الوادي التحتاني) شرقي الرَّبوة ، في المنطقة المعروفة في أيامنا بكيوان . وكانت المنطقة الواقعة إلى الشرق من مرجة جسر ابن شوّاش وأسفل محلّة النّيربين تُعرف باسم أراضي (حمص) كما يُفهم من نصّي الحموي والبدري مجتمعين . وموقع هذه المنطقة اليوم ينطبق على الجزء الأسفل الجنوبي من حديقة تشرين على طريق بيروت ، وصولاً إلى الأرض التي كان بها مسبح السيريانا سابقاً .

(3) موقعها اليوم ينطبق على حيّ المالكي وغربيّه ومنطقة مشفى الشامي وحديقة تشرين .

وفيها يقول بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي يصف النيربين :

رعى الله (وادي النيربين) فإنني ... قطعتُ به يوماً لذيذاً من العمر
دري أنني قد جئته متنزّهاً ... فمدّ لأقدامي ثياباً من الزهر
وأوحى إلى الأغصان قربي فأرسلت ... هدايا مع الأرياح طيّبة النشر
وأخدمني الماءَ القراح وحيثما ... سنحتُ رأيت الماء في خدمتي يجري

وأجاد الوداعي بقوله ثم أفاد :

ويومٌ لنا بالنَّيربين رقيقةٌ ... حواشيه خال من رقيب يشينه
وقفنا وسلّمنا على الدوح بُكرةً ... فردت علينا بالرؤوس غصونه

سيف الدين المُشدّ ، وأبدع :

وصباً صَبَتْ من (قاسيون) فسكّنت ... بهبوبها وصبَ الفؤاد البالي
خاضت مياه (النَّيربين) عشيّة ... وأتتكَ وهي بليلةُ الأذيال

(نزهة الأنام 80-82)

ربوة دمشق

ومن محاسن الشام محلة (الرَّبوة) [1] ، قال بعض المفسرين : الرَّبوة أحدثها بنو كنعان وابتدأوها . وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومَعين﴾ ، يعني مريم وعيسى عليهما السلام . وإنما قيل لها ربوة لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهها . وكل رابٍ مرتفع على ما حوله يقال له

(1) ما تزال المحلّة معروفة إلى عصرنا ، كمتنزّه يعجّ بالمطاعم والمقاهي ورائحة الشواء .

ربوة ومنه تربية الصبي لترفعه في النفس والجسم ، والمَعين الماء الذي يخرج من الأرض .

وقال ابن مطرف في ترتيبه : الرَّبوة فيها ثماني لغات : رُبوة ، ورَبوة ، ورِبوة ، ورُباوة ، ورَباوة ، ورِباوة ، ورابية ، ورُبْي ، والجمع رُبى .

والرَّبوة مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي ، وبه صفة محراب يقال إنه مهد عيسى عليه السلام يُزار ويُنذر له . وبها جامع وخطبة ومدارس وعدّة مساجد [1] ، وبها قاعات وأطباق ، وفيها عين ماء يقال لها (الملثّم) ومرابط للدواب وبها سويقتان قاطع بينهما نهر (بردى) ، وبها صيّادو السمك يصطادون [2] ، والقلاّيون على جبل النهر يقلونه ، ويُذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم خلاف ما يجيئها من اللحم من المدينة ، وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف في الزبادي والصحون وكل ما تشتهيه الأنفس فيها . وبها فرنان وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز التنّوري ، وأما الفواكه فلا قيمة لها فإني اشتريت الرطل بربع درهم ، وكذلك الرطل الدمشقي من المشمش مثله والتفاح كذلك .

وبها حمّام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه ونظافته ، وله شبابيك تطل على النهر وهو مبني ما بين الأنهر من فوقه ومن تحته . وبها طارمة المسجد الديلمي الذي جدّده نور الدين الشهيد وله أوقاف على قرّاء ووعّاظ وقراءة البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفرّاش والبوّاب والوقاد . وفيه يقول تاج الدين الكندي :

إن (نُورَ الدين) لما أن رأى ... في البساتين قصور الأغنياء
عمّر (الرَّبوة) قصراً شاهقاً ... نُزهة مُطلقة للفقراء

---

(1) لم يبق في عصرنا أي شيء من ذلك ، إنما هناك كتابة أثرية نادرة على متن الصخرة المعروفة بـ (المنشار) ، تؤرخ بناء مسجد هناك عام 444 هـ في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي .

(2) أي كان في نهر بردى عند الرَّبوة سمك ، وكانت مياهه عذبة شروبة . أما اليوم فحتى الضفادع تأنف من العيش في بردى لقذارته ونُتنه .

وقال الأمير مجير الدين محمد بن تميم وأحسن رحمه الله :

يا حُسن طارمة في الجوّ شاهقة ... ما ان تملّ بها العيان من نظر
نزّه لحاظك في طاقاتها لترى ... أصناف ما خلق الرحمن للبشر
ترى محاسن وادٍ يحتوي نزهاً ... لذاذة السمع والأبصار والفكر
وربوة قد سمت حتى تخال لها ... سِراً تحدثه للأنجم الزهر
ما بين روض وأنهار مسلسلة ... تجري وتحمل أنواعاً من الثمر
كم بتُّ فيها وخدني شادن غنج ... حلو التثني كغصن البانة النضر
أشكو إليه الذي ألقى ومقلته ... تشكو إلي الذي يلقى من السهر
حتى رأيت نجوم الليل قد غربت ... عنا وهبّت علينا نسمة السحر
قمنا نجرّر أذيال العفاف بها ... والله يعلم منّا صحّة الخبر
لا خير في لذة تمضي ويعقبها ... خطيئة تسلك الإنسان في سقر

ومن لطائفه قوله :

موضع القس جنّة الخلد أضحت ... مهجتي كل ساعة تشتهيها
طوّقتني بفضلها فلهذا ... كلما زرتها أغرّد فيها

وهذه القاعة التي بناها نور الدين الشهيد هي على شعب جبل جميعها متخّتة بألواح من خشب ، سقفها (نهر يزيد) وأساسها من تحتها (نهر ثورا) ومنظرها من الغايات التي لا تُدرك . وقبالها في الجبل الغربي [1] ضريح العاشق والمعشوق وعليهما صومعتان مبيّضتان وبينهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من

(1) الجبل الغربي هو جبل المزّة ، ولا وجود لضريح عشّاق به في عصرنا ، إنما به السجن المعروف الذي أقيم في أوائل القرن العشرين .

الثريّات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لا يحتاط به الوصف ، حتى أن بعض الناس يطلع اليها ليتنزّه فيها يوماً فيقيم بها شهراً ، وجبلاها متقابلان متلاقيان عليها ، الجبل الغربي بذيله دفّ الزعفران والجبل الشرقي رأسه مثل الجنك . ولهذا أطنب الشعراء في وصفهما .

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة في وصفهما :

بالجنك من مغنى دمشق حمائم ... في دف أشجار تشوق بلطفها

فإذا أشار لها الشجيّ بكاسه ... غنّت عليه بجنكها وبدفّها

وطلع الشيخ شمس الدين محمد بن الخياط الشهير بضفدع مع ابن خلّكان إلى الرَّبوة ، فوجدا غلماناً يعومون ويلعبون في نهر (ثورا) الذي تحت التخوت المعروف بالمنيقبة [1] ، فأنشد ضفدع قوله :

لربوتنا واد حوى كلّ بهجة ... فعيش الورى يحلو لديه ويعذب

ترقّ لنا الأنهار من تحت جنكه ... فلا عجب أنا نخوض ونلعب

---

(1) يقدّم لنا البدري هنا فائدة هامّة في الطبوغرافيا التاريخية لمدينة دمشق ، فاسم المنيقبة المذكور كان يشكّل لغزاً استغلق على الحل مدّة طويلة . فقد ذكر المؤرخ الدمشقي يوسف بن عبد الهادي في أواخر القرن التاسع الهجري برسالته «غدق الأفكار في ذكر الأنهار» : نهر ثورا . . مقسمه من الرَّبوة . . يهبط في نقب يُقال له [. . .] . وقد سقط من المخطوطة اسم هذا النَّقب بسبب تآكل أطراف الأوراق ، فبقي اسمه مجهولاً ، وكنا أمضينا في التفتيش عن اسمه سنوات طوالاً ، إلى أن أسعفنا به البدري أخيراً . وكان الرحّالة الكبير ابن بطّوطة الطَّنجي قد وصف النّقب في رحلتيه لدمشق عامي 726 هـ و 749 هـ ، ولكن دون أن يسمّيه : وهو يشقُّ تحت الرَّبوة ، وقد نُحت له مجرى في الحجر الصَّلد كالغار الكبير . كما عثرنا أيضاً على ذكر للمنيقبة في أواسط القرن التاسع الهجري في كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي ، ص 181-182 ؛ وكذلك في النصف الأول من القرن العاشر الهجري في كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» لابن طولون الصالحي (1 : 320) : قطع ماء نهر المنيقبة . ويُفهم من كلامه أن اسم المُنيقبة كان يُطلق في عصره على مجرى نهر ثورا بعد أن يهبط من النّقب المذكور .

فأنشد ابن خلّكان رحمه الله :

وسرب ظباء في غدير تخالهم ... بدوراً بأفق الماء تبدو وتغربُ
يقول خليلي والغرام مصاحبي ... أما لك عن عهد الصبابة مذهبُ
وفي دمك المطلول خاضواكما ترى ... فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

(نزهة الأنام 82-91)

المَقْسَم

ومن محاسن الشام (المقسم) الذي تنقسم منه السبعة أنهار ، وأصله من ينابيع (عيون التوت) [1] .

وإليها يشير برهان الدين القيراطي بقوله :

عندي لأرض دمشق فرط صبابة ... فسقى حماها الرَّحبَ صوبُ غيوث
وعيوننا لفراق مشمشها حكى ... جريانُ أدمعها (عيونَ التُّوث)

ويمر [بردى] على قرية الزبداني كالبحر إلى أن يلتقي على قرية (الفيجة) الفيحاء [بمياه ينبوعها] .

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي في وصف الزبداني :

دمشق وافى بطيب ... نعيمها المتداني
وصح قول البرايا ... من عاشَرَ الزَّبداني [2]

---

(1) أي نبع بردى في قرية الزَّبداني غربي دمشق .
(2) يقصد بذلك المثل المتداول قديماً بين أهل الأدب : «من عاشر الزَّبداني فاحت روائحه» . راجع الريف السوري لوصفي زكريا ، 2 : 272 .

ويقال : من ظاهر (باب السلامة) إلى ظاهر (باب توما) ثلاثمائة وستون عيناً تجري إلى القبلة . قلت : ورأيت غالبها وارتويت من عذبها . انتهى .

وتنقسم هذه الأنهار السبعة منها : (يزيد) و (ثورا) بذيل الجبل الشرقي . ويشق نهر (بردى) ببطن الوادي ، ونهر (بانياس) ونهر (القنوات) ونهر (القناية) ونهر (الدّاراني) بذيل الجبل الغربي .

وآخر ما يتصفّى من هذه الأنهار ويفضل منها هو نهر (بردى) وينزل في (المقسم) على نحو من عشرين درجة كالشّادروان ، فرؤيته تُذهب الهمّ وتزيل الحزن .

وما ألطف قول القاضي صدر الدين بن الآدمي رحمه الله :

قالوا فؤادَك بردِّ عن محبتهم ... فقلت نار الهوى لا تنطفي أبدا
برّدت قلبي عن الأحباب مُذ رحلوا ... بما (يزيدُ) على (ثورا) وما (بردا)

وقال صاحب دواوين الإنشاء العلاء بن فضل الله :

انزل بباناس ففي نهرها ... سرٌّ به تجلى عروس السُّرور
واسمع حديث الماء في جريه ... فانه يشفي عليل الصدور

وجمعها الشيخ شعبان الآثاري في قوله وأجاد :

شوقي (يزيدُ) وقلبُ الصَّبِّ ما (بردا) ... و(بان ياسي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) و(العذول) حكى ... (ثورا) يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنّية (بالجَنْك) جاوبها ... (شبّابة) كم بها من (عاشق) شهدا
فالبدر (جبهتها) والرِّدف (ربوتها) ... وخلّها مات من (خلخالها) كمدا

(نزهة الأنام 91-94)

حواكير دمشق

ومن محاسن الشام (الحواكير) [1]، وهي كالحدائق في سفح (جبل قاسيون) ، فإن الفاصل بينه وبين (جبل الرَّبوة) عقبة قرية (دمّر) التي بحدّ (قبّة سيّار) . يقال إن سيّاراً هذا وبشّاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للربوة وكأنهما كانا من أصحاب الخطوة ، فإذا أراد أحدهما الاجتماع بالآخر يضع قدمه على جانب الجبل والأخرى عند صاحبه ، فكأنهما كانا يمشيان في الهواء ، فبنوا لهما هاتين القبّتين على هذين الجبلين .

رجع : وكان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرياحين والأزهار في سفح (جبل قاسيون) لحكمة وهو أنه يقيها البرد كونها في داره ، وأن النسيم إذا مرّ بها يحمل منها [من طيب الريح] ما استطاع ويسري به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان [2].

ومن محاسن الشام (الورد) ، وهو جنس منه ستة أنواع بدمشق خلا الأسود . وقرية الزَّبداني هي قلعة الورد ، يستخرجون بها ماوَرْد القاهرة المحروسة ومكّة المشرّفة وغيرهما من البلاد [3]. وكذلك فاكهتها هي المنقولة إلى القاهرة المحروسة وغيرها .

ومن محاسن الشام : الورد النّسريني ، والنّسرين ، والنَّرجس ، والبنفسج ، والياسمين ، والمنثور ، والسَّوسن ، والزَّنبق ، والبهار (وهو الأقحوان الأصفر) ، والأقحوان ، والأذريون ، والبابونج ، والآس ، والرَّيحان ،

---

(1) كان اسم الحواكير ما يزال متداولاً معروفاً بدمشق حتى أواخر السبعينيات من القرن العشرين ، ولقد أدركنا أواخر هذه الحواكير المزروعة بالصّبّار والأشجار المثمرة ، إلى أن تم اجتثاث آخرها وقامت بها الأبنية الشاهقة ، فآل حتى اسمها إلى النسيان . وموقعها اليوم يُعرف بغربي المالكي ، وصولاً إلى مشفى الشامي وساحة آخر الخط .

(2) هذه كانت دمشق ، أما الآن فالحرارة بها في الصيف تسجّل 47 درجة مئوية ، وأكثر .

(3) للجغرافي الدمشقي شيخ الرَّبوة الدّمشقي (المتوفى عام 727 هـ) نص طريف ونادر عن صناعة تقطير الورد في عصره بكتابه «نُخبة الدَّهر في عجائب البرّ والبحر» .

والنمام ، وشقائق النعمان ، والنيلوفر ، والبان ، والآس البرّي (قف وانظـر) [1] ، وتمر الحنّا ، والحيلاني (وهو شجر يشبه الصفصاف) ، وشجر الزَّنزلخت ، وشـجر السَّرو .

قلتُ : وجميع هذه المحاسن بالحواكير ، غير أن الماء لا يصل إليها إلاّ بجهد كبير لعلوّها عن نهر يزيد ، فاصطنعوا لهـا الـدولاب ودورانه بكـل بهيـم شـديد . وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي :

حـــــاكورةٌ دولابهــــــا إلــى الغصــون قــد شــكا
مــن حــين ضــاع زهرهــا دار عليــــــه وبكــــــا

(نزهة الأنام 102-185)

المزّة واللّوّان وكفر سوسية

ومـن محاسـن الشـام أرض «المزّة واللّوّان» ، فـإن حكمـاء اليونـان لّما رأوا الجـانب الشــمالي يصلــح لزراعــة الأزهــار ، ورأوا طيبــة أرض الجــانب القبلــي اختاروها لغرس الأشجار .

فمنـه : المشــمش ، والقراصيــا ، والكمّــثرى ، والتفّــاح ، والدّرّاقــن ، والخوخ ، والأجاص .

وكل هذه الأصنـاف والألـوان بـالمزّة وأرض اللّـوان ، وبهـا الـدُّور الوسيعة الفناء المليحة الأسـاس والبنـاء . وفيهـا أعيـان النـاس ، وهـي الجامعة بين حسن الأنواع والأجناس مع الهـواء الصحيـح والاعتـدال بـالترجيح . وبهـا سـويقتان ،

---

(1) انقرض هـذا الآس البـرّي مـن دمشـق ، وكـانت صديقتنـا الكبيرة الأديبـة ألفـة عمـر باشـا الإدلبـي نقلـت في بعـض كتاباتهـا الأدبيـة الشيّقة عـن دمشـق ، مـن ذاكـرة بعـض بسـاتنة الصالحية القدامى من الرّعيل الأول ، أن آباءهم أدركوه وكانوا يسمّونه : الأَفَنْضُر .

فيهما سائر ما يُشتهى من الألوان . ومصلّى بخطبة وخطبة بجامع جديد ، وفيها ضريح الولي المُعتقَد الشيخ سعيد [1] ، أعاد الله علينا من بركاته وأمدّنا بصالح دعواته .

ويُتوصّل منها إلى قرية (كفر سوسة) ، وبها معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام ، مع الفواكه الكثيرة بطريق الانضمام .

(نزهة الأنام 187-212)

المزّاز والشويكة

ومنها إلى أرض (المزّاز) و (الشويكة) ، وهي من محاسن الشام وإليها يُنسب الرُّمّان الشويكي .

(نزهة الأنام 214)

داريّا

ومن محاسن الشام قرية (داريّا) ، وهي قبلي (الشويكة) ، وبها السيّدان الجليلان أبو سليمان الداراني وأبو مسلم الخولاني ، أعاد الله علينا من بركاتهما المتواترة وأفاض علينا من بحار علومهما الزاخرة . وإليها يُنسب البطّيخ الداراني .

(نزهة الأنام 219-220)

---

(1) كنا في كتابنا «معالم دمشق التاريخية» (ص 384) قد بحثنا بغير جدوى تسمية محلّة «الشيخ سعد» المعروفة في أيامنا بمنطقة المزّة القديمة ، والتي سكتت عنها جميع المصادر المعتبرة . فها هو البدري هنا يحلّ لنا هذا اللّغز بتسمية الولي الشيخ «سعيد» . وذكر ابن طولون في القرن العاشر (مخطوط ذخائر القصر) : ومنها الشيخ سعيد قبلي المزّة ، تجاه محل استسقاء أهل دمشق ، وقد أدركتُ به منبراً من حجر حتى قبّته . . يهرع الناس إلى هناك للفرجة على الوادي الفوقاني ذهاباً وإياباً ، ويزورون الشيخ سعيداً . .

يلدا

ومن محاسن الشام قرية (يَلْدا) ، وهي من القبلة إلى شرقي قرية (عربيل) ، وما بينهما من القرى الجميع برسم زراعة كروم العنب وعرائشه .

قلتُ : وبين هذه الكروم المذكورة قطع أراضٍ جميعها أصول لوز ، ليس لها نظير في أيام تنويرها ، وهي من محاسن الشام .

(نزهة الأنام 223–235)

مرج الشيخ أرسلان

ومن محاسن الشام (مرج الشيخ أرسلان) [1] ، أعادَ الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وأجرى علينا من صالح كراماته ، وفيه أقول :

يا من غدا قلبه قاسيا	قم لولي صادق البرهان
وقف بذلّ وانكسار وقل	بمدمع يا سيدي أرسلان

وهو يشتمل على أنهار وأشجار ونواعير لها مع النسيم رشّاش ، وغالب تلك الأراضي تزرع الخشخاش .

(نزهة الأنام 248)

---

(1) يقع هذا المرج موضع تربة الشيخ أرسلان بظاهر باب توما ، ويتّضح من كلام البدري أن المرج كان يشمل منطقة أكبر من المساحة التي يقع بها المقام والتربة الحاليّان ، ويبدو أنه كان يضمّ عدّة بساتين ومحالّ ، كالأحدعشريّة وطاحون الجاج إلى أكناف ما يُعرف اليوم ببساتين الطبّالة والدّويلعة . أما الشيخ أرسلان فهو المتصوّف المشهور في القرن السادس الهجري ، له عند أهل الشام إلى اليوم مكانة روحية متناهية السموّ ، وما برح اسمه يُذكر دوماً في العراضات الشعبية . وكنا في عام 1984 قد نشرنا عن سيرة حياته كتاباً بعنوان : «غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان» ، للمؤرخ الدمشقي ابن طولون الصالحي .

الوادي التحتاني

ومن محاسن الشام (الوادي التحتاني) [1]، وهو شرقي (مرج الشيخ)، وهو يشتمل على غياض ورياض، فالرِّياض هي رياض السَّفرجل، وفيه يقول القيراطي:

فؤادي إلى بانات جلّق مائل ... ودمعي على أنهارها يتحدّرُ

فوافي إلى زهر السفرجل شيّقاً ... إذا ما بدا مثل الدراهم ينثر

غياضٌ يفيض الماء في عرصاتها ... فتزهو جمالاً عند ذاك وتزهر

ترى بردى فيها يجول كأنه ... وحصباؤه سيفٌ صقيل مجوهر

وهنا نكتة لطيفة وهو أن الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة قدم إلى دمشق في أيام السفرجل فأضافه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم في (الوادي التحتاني) لأجل رؤية زهر السفرجل، فصادف نهار حرّ وقيظ شديد، فأنشد الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة المصري:

قد أشبه الحمّام منزل لهونا ... فالماء يسخن والأزاهر تحلق

فلذاك جسمي منشد ومصحِّفٌ ... عرق على عرق ومثلي يعرق

فأجابه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم يقول:

ما أشبه الحمّام منزلُ لهونا ... إلاّ لمعنى راق فيه المنطق

فالدَّوح مثل قبابه والزهر كال ... ـجامات فيه وماؤه يتدفّق

---

(1) يريد البدري بهذا الوادي التحتاني القرى القبلية للغوطة الشرقية، الواقعة شرقي مدينة دمشق، جنوبي المجرى الرئيسي لبردى. مع التنبيه إلى عدم الخلط بينه وبين الوادي التحتاني إلى الجنوب الشرقي من الرّبوة، فيما يُعرف بأيامنا ببساتين كيوان.

وأما الغياض فهي غياض الحور ، وهو في علو السواري خالص الاعتدال ورقه بوجهين أخضر وأبيض ، له مع النسيم حفيف لطيف بساق أبيض صقيل ترتاح الأنفس إليه .

وبه (غيضة السلطان) [1] ، وحورها لا يستطيع الإنسان أن يدخل فيما بينه لانضمامه ولئلا يضل عن الطريق ، كأنه سُكب بقوالب من الشمع .

وبهذا الوادي متنزه يقال له (ست الشام) ، وهو مرجة خضراء ما بين هذه الغياض وبها عين تجري بماء بارد عذب .

(نزهة الأنام 249-254)

المرج

ومن محاسن الشام [المرج] [2] ، وأوله منتهى (الوادي التحتاني) وآخره (البحرة) [3] ، يقال إنه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية تزرع الغلّة والحبوبات ، وفي الغالب الشعير .

و(البحرة) إليها ينصبّ ما يفضل من مياه أنهار دمشق ومنها صيدها من السماء والماء من الطيور والأسماك صيفاً وشتاء [4] .

(نزهة الأنام 255)

---

(1) كانت هذه الغيضة تقع بين قريتي جسرين وحتيتة جرش على نهر بردى ، ولكنها لا تُعرف بهذا الاسم اليوم . ولا علاقة لها بقرية مرج السلطان المعروفة في المرج ، والمنسوبة للسّلطان العثماني سليمان خان القانوني .

(2) الكلمة ساقطة بالأصل ، وما زال المرج يُعرف بهذا الاسم حتى أيامنا ، وقديماً عُرف بتسميات عدّة : مرج دمشق ، مرج راهط ، مرج عذراء ، مرج الغوطة .

(3) أي بحيرة العتيبة المعروفة ، التي يصبّ فيها ما يفضل من بردى .

(4) وأين هي الطيور والأسماك اليوم ! لقد غدت واحة دمشق في خاتمة الألفية الثانية منطقة أدعى إلى الجفاف آيلة إلى التصحّر بسبب الاكتظاظ وسوء استخدام الموارد المائية .

الضُّمَيْر

ومن محاسن الشام «ضمير» ، وهي من القرى القديمة اتّخذها اليونان ، وإليها يُنسب البطيخ الضميري الأصفر .

(نزهة الأنام 256)

برزة

ومن محاسن الشام «برزة» ، وهي من متنزّهات دمشق التي يُرحل إليها ، وهي شمال ضمير وبها مقام نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام ، وقد تقدّم سبب تسميتها برزة . وإليها يُنسب التين البرزي .

(نزهة الأنام 260-261)

القابون

ومن محاسن الشام «القابون» ، وهي حسنة الماء والهواء ، وهما قابونان : فوقاني وتحتاني ، وبهما أرض (مصطبة السلطان) [1] ، وهي مصطبة في قدر فدّان يُصعد إليها في نيّف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار .

وإلى هذا القابون يُنسب الخيار .

(نزهة الأنام 264-265)

---

(1) يريد بها مصطبة السلطان ، كانت في سهل القابون بينها وبين برزة ، وهي مصطبة عظيمة كان الملوك والنواب والقواد في العهد المملوكي ينزلون بها إذا قدموا من جهة حلب ، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ، ويدخلون دمشق بموكب حافل .

بيت لهيا والعنّابة

ومن محاسن الشام (بيت لهيا) [1] و(العنّابة) ، ومن الناس من يقول (بيت الآلهة) وهو مكان مبارك يُزار ، ويقال إن حوّاء عليها السلام كانت مقيمة بهذا المكان . ونقل بعض المؤرخين قال : كانت حوّاء عليها السلام في (بيت لهيا) وآدم عليه السلام في (بيت أبيات) وهابيل في (سطرا) وقابيل في (قينية) .

فائدة عن عبد الرحمن بن يحيى بن اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان ، فما تقبّل منه جاءت نار فأحرقته ومالم يتقبّل بقي على حاله . وكان هابيل صاحب غنم وكان منزله في (سطرا) ، وكان قابيل صاحب زرع وكان منزله في (قينية) ، وكان آدم في (بيت أبيات) ، وكانت حواء في (بيت لهيا) . فجاء هابيل بكبش سمين من غنمه فجعله على الصخرة فأخذته النار ، وجاء قابيل بقمح من غلّته فوضعه على الصخرة فبقي على حاله ، فحسد قابيل وتبعه في هذا الجبل يريد قتله حتى صار من أمره ما صار .

قال بعض المؤرخين : وهذه الصخرة هي الآن في الجامع عند باب جيرون بالقرب من (حاصل الزيت) وهي صخرة سوداء مقرورة . انتهى .

(نزهة الأنام 268-270)

العنّابة

وأما (العنّابة) [2] فهي محلة الآن تشتمل على دور وقصور ، والسبب في تسميتها أن كاهناً في زمن الرُّوم كان يتعبّد في صومعة بتلك الأرض فحصل له علّة

---

(1) موقعها اليوم حيّ القصّاع المعروف ، إلى الشمال من محلّة باب توما .
(2) موقعها في يومنا شمالي محلّتي القزّازين والسّادات ، عند جادّة الخطيب والقصور .

أشرف منها على الهلاك ، فنزل عنده تاجر من تجار الروم ومن جملة متجره خمسة أحمال عنّاب ، فحلّها ونشرها ، وكانت دمشق مُمحلة من العناب وليس يوجد بها حبّة عناب ، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له . فلما أصبح جاء إليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلّة ووجد الكاهن في نفسه نشاطاً ، فقال له : ما الذي استعملت البارحة ؟ قال : الشيء الفلاني ، ونسي ان يذكر له العناب . فقال الطبيب : ولعلك استعملت عنّاباً ؟ قال : نعم ، ومن أخبرك بذلك ؟ قال : لعلمي أن علّتك هذه لا يبرئها سواه ، وهو معدوم ، واختشيتُ أن أعلّق خاطرك به .

فزرع الكاهن الأرض التي حول صومعته جميعها عناباً ، وتقرّب بها في كل من احتاج منها إلى شيء يأخذه ، حتى يقال إن في الإسلام وُجد من ذلك العناب فرد شجرة وبُني ما حولها ، فسميت تلك المحلة بها ، والله تعالى أعلم .

(نزهة الأنام 268-273)

سطرا ومُقرى

ومن محاسن الشام أرض (سطرا ومُقرى) ، وهما من الأراضي الطيّبة الفيحاء . وفيها يقول جلال الدين ابن خطيب داريّا :

خليليّ إن وافيتما الشام بُكرةً ... وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقرءا عني كتاباً كتبته ... بدمعي لكم مقرى ولا تنسيا سطرا

وفيهما يقول ابن عُنين :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... وظلّك يا مقرى عليّ ظليلُ
دمشقُ فبي شوقٌ إليها مبرّحٌ ... وإن لَجّ واشٍ أو ألحّ عذولُ

وبينهما متنزّه يسمى باليلكي ، يجتمع فيه الناس أيام زهر السفرجل ويسيّبون الماء تحت أشجاره ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ، ويعلّقون قشور النارنج موقدة في الأشجار ، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون فيه أوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها .

(نزهة الأنام 273-275)

أراضي المزارع

ومن محاسن الشام أراضي المزارع [1] ، وهي خضرة مع الفلاة وكثرة المياه . ومن خصوصياتها الهليون والطرخون والكرنب والباذنجان والكرّاث والجزر ، وبها الزعتر والفجل والسّذاب والنعناع والرَّشاد والبقلة والإسفاناخ والكرفس والسِّلق والهندباء والبصل والثوم والكسفرة والكراويا والكمّون والقَرع ، وبها الكمأة وهي من خواصها ، وبها اللوبياء والأرز والباقلاء والذُّرة والدّخن والماش والقرطم والعدس والسُّمسم وبزر قطونا والتّرمس والحمّص والحلبة والخسّ .

(نزهة الأنام 275-310)

الميطور والسّيلون

ومن محاسن الشام أرض (الميطور) [2] و (السَّيلون) [3] ، وهما من متنزّهاتها ، ويقال إن أول من غرس بها غراساً بيده سليمان بن عبد الملك .

---

(1) يخيّل لنا أنه يقصد بها منطقة بساتين أبي جرش ، بما يصاقب اليوم منطقة شرقي ركن الدين والحزام الأخضر وملعب الفيحاء ومبتدأ أوتوستراد القابون .

(2) الميطور من أراضي الصالحية المعروفة شرقيها بين نهري يزيد وثورا على طريق برزة .

(3) لا نظنّه بقرب الميطور بالأرباض الشرقية للصالحية ، بل بالنّيرب ، وسنأتي على ذكره . وكان بأسفل الميطور ونهر ثورا محلّة بيت أبيات ، بنواحي مشفى ابن النفيس اليوم .

[وبهما شجر] البندق والفستق .

ويقال إن سليمان بن عبد الملك كان نهماً في الأكل ، فجاءه بستاني ليضمن بستانه هذا ، فقال : أركبُ إليه أولاً أنظر فاكهته ثم نضمّنك إيّاه . ثم ركب ودخل البستان فلم يدع به من الثمار إلاّ اليسير حتى ما خلّى فيه من البندق الأخضر والفستق إلاّ ما عزب عنه . ثم نادى الضامنَ سليمانُ وقال للشهود : اكتبوا على هذا ضمان هذا البستان . فقال البستاني : كنتُ أضمِّنه قبل دخول أمير المؤمنين إليه !. . فضحك منه . ويقال إن قشر البندق والفستق تجمّع فجاء قدر مكّوك طائفي وفضل عنه .

نقل الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث قال : أخبرنا أن سليمان بن عبد الملك أمر قيّم بستانه أن يحبس على الفواكه لا يجني منها شيئاً ، وأمرني بالركوب معه عند طلوع القمر من آخر الليل ومن حضر من أصحابه . فلما دخلنا إلى البستان انفرد كل منا يأكل حتى ارتفع النهار ، ثم صرنا إليه وقد أكلنا قدر الطاقة ، ونحن نقول : هذا القطف العنب استوى ، فيخرطه في فيه ، وهذه التفاحة نضجت وهذه الانجاصة ناعمة ، وكلما رأينا شيئاً نضيجاً نشير إليه فيتناوله ويأكله .

حتى آن الضحى ، فأقبل على قيّم البستان وقال : ويحك ياشمردل إني قد جعت ، فهل عندك شيء تطعمنيه ؟ قال : نعم ، عناق حولية حمراء . قال : ائتني بها بلا تأخير . فجاء بها مشوية على خوان وهو قائم بين أشجار الفاكهة ، فصار يتناول منها قطعة بعد قطعة ويتناول عليها الفاكهة إلى أن فرغت .

فقال له : ياشمردل هل عندك غيرها ؟ فقال : نعم ، دجاجتان معلوفتان قد عميتا شحماً . قال : ائتني بهما . ففعل كما فعل بالعناق وأتى بهما وهو قائم بين أشجار الفاكهة حتى فرغا ، وقال له : إن كان عندك سويق بسمن سلا وبعض سُكّر فائتني به فإني جائع ، فجاء بذلك فأكله . واستدعى بماء بارد وجعل شمردل يصب عليه الماء وأمير المومنين يحركه حتى كفأه فارغاً .

ثم أعاد الأكل في الفاكهة فأكل مليّاً ، وإذا بالسماط حضر فجلس يأكل كأنه لم يأكل شيئاً . قال الحارث : فعجبنا منه .

ويقال إنه عرضت له حمّى عقيب هذا أشرف منها على الموت ، وقيل بل سبب موته أنه أكل أربعمائة بيضة وسلّتي تين وسبعمائة رمانة وخروف وست دجاجات ومكّوك زبيب طائفي . انتهى .

وإنما ذكر ذلك على سبيل الاستطراد وذكر بستانه والله أعلم .

(نزهة الأنام 310-317)

السَّهم

ومن محاس الشام (السهم) [1] ، وهو متصل بأرض الصالحيّة ، وهو درب ما بين دور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبحور . وفيه يقول القيراطي :

دمشق بواديها رياضٌ نواضرٌ ... بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمُّ

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

ومن لطائفه قوله فيها وفي السَّهم :

بقاع دمشق للأمير بشائر ... فقف بمغاني جنكها مترنّما

بقاعٌ إذا قوس الرباب بسهمه ... رماها غدت بالوشي برداً مسهما

(نزهة الأنام 317-318)

---

(1) كان هناك سهمان : السهم الأدنى موقعه في عصرنا طريق الجبّة على كتف نهر ثورا شرقي محلّة الجسر الأبيض ، والسهم الأعلى بمحلّة طريق الشيخ محيي الدين بأعلى الجبّة .

بصارو وبهران

ومن المحاسن أرض (بصارو) [1] و (بهران) [2]، وهما معدن التوت وأصل حُسنه المنعوت .

(نزهة الأنام 318)

الصالحية

ومن محاسن الشام (الصالحية) مشحونة بالزوايا والترب والمدارس حتى أن بها قصبة دون ميل تمشي فيها بين ترب ومدارس بناء جميل ، استولى عليها المباشرون والنظّار ، فأزالوا منها العين ولم يبق سوى الآثار . فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح ، وأمست في ظلمة بعد تلك المصابيح ، وهي تقول : أصبحتُ حاصلاً ، بعدما كان إيواني بالقرّاء عامراً آهلاً ، وهذه تقول : أضحيتُ مربطاً للبهائم ، بعدما كنت معبداً للقائم والصائم . وهذه تقول : اتخذوني مسكناً . وهذه تقول : جعلوني متبناً . وهذه تقول : هدّوني ، وأخذوا سقفي وكشفوني . وهذه تقول : أخربوا جداري وباعوا الباب ، وجعلوني مأوى للكلاب . والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث ، فيقال لهم : اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن : ﴿إنّ إلينا إيابهم ، ثم إنّ علينا حسابهم﴾ .

---

(1) من بساتين الصالحية المعروفة ، ذكره ابن طولون الصالحي في القلائد الجوهرية (1 : 315) ، وأثبت الشيخ دهمان موقعه في مخططه عن الصالحية بين محلّتي الميطور والشبلية بأسفل نهر يزيد . قلنا : ينطبق في أيامنا كما نرى على حي ركن الدين .

(2) ذكر ابن كنّان الصالحي في القرن الثاني عشر الهجري بكتابه «المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية» (ص 66) : والنّيرب غربي الصالحية ، وهو من محاسن دمشق ، أوله بستان بهران . وذكر د. صلاح الدين المنجّد (تاريخ دمشق لابن عساكر ، 2 : 337) : كان في النّيرب الأعلى بين النهرين مكانان اسمهما بهرام وسيلون . قلنا : أما السّيلون فهو موقع مشفى المواساة اليوم ، وأما بستان بهران فكان يقع جنوبي وغربي الفواخير ، بين محلتي الباشكاتب ونوري باشا في عصرنا ، أي أول بساتين النّيرب غربي الصالحية .

فيا شوقاه لحسن (الجركسية) وحلاوة (الركنية) ، ويالهفاه على (جامع الأفرم) و(الناصرية) ، تغيّرت تلك المعاهد ، وغُلِّقت أبواب تلك المساجد والمعابد . إنّا لله وإنا إليه راجعون . إنّ هذا لهو البلاء الجسيم ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم .

وبالصالحية نهران فيها يجريان : (ثورا) و (يزيد) ، وكم عليهما من غرفة وقصر مُشيَّد .

يُحكى عن ابن الصائغ الحنفي أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الابيض) عند الأمير مجير الدين بن تميم ، ونهر ثورا يمر بداره المأنوسة ، فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين ابن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدّامه منه ما أعجبه ، ثم التفت لابن تميم وقال له : أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم . وأنشده في الحال ارتجالاً :

يقول وقد رأى ثورا خليلي ... يفيض بسائر الثمرات فيضا
أيكفيكم فلا تشرون شيئا ... فقلتُ نعم ، ونبيعُ أيضا

فقال ابن الصائغ : وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان ؟ قال له ابن تميم : إنما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه ، فيلقيها النسيم عندما تشتبك الأغصان ، وأما البساتنة فإنهم يضعون فواكه مجموعة على أبواب البساتين ، كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج إلى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين .

وأُخبرتُ في القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين ، فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار ، من غير أن يتناول بيده شيئاً . وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتكرار ، وغالباً ما يُزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها . انتهى .

وغالب أهل الصالحية يُهادون سكان المدينة بالبَلَح والأُترُج والكبّاد ، لنموّ حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد .

(نزهة الأنام 320-323)

جبل قاسيون

ومن محاسن الشام (جبل قاسيون) ، فإن الصالحيّة في سفحه وتحت ذراه ، وهو جبل مبارك به آثار الأنبياء والصحابة والأولياء ، وبه (الكهف) ويقال إنه كهف أصحاب القصة ، وبه مغارة الدم يقال إن كل ليلة جمعة يرى بها قطرة دم ، وبه محاريب الأربعين محل تعبّدهم .

وبه ينبت من عند الله تعالى من الأزهار والأشجار ما لا ينبت في غيره ، وسقيه بالأمطار . فمن أزهاره القرنفل والخزام والشيح والسمّاق والزعرور والزيزفون والخرنوب .

(نزهة الأنام 39-45)

قرية منين

ومن محاسن الشام قرية (منين) ، خضرة نضرة وهي شمالي جبل قاسيون ، وبها السيدان الجليلان (الشيخ جندل) و (الشيخ أبو الرجال) أعاد الله علينا من بركاتهما . ويقال إن الشيخ جندل لا يقبل من ينام عنده ، فإذا نام الإنسان حول الضريح يفتح عينه يجد نفسه ملقى خارج المزار ، وقد اشتهر ذلك عنه .

وإلى منين يُنسب الجوز المنيني . وبها الثلج الذي يقيم من العام إلى القابل ، ويُحمل ثلج السلطان إلى القاهرة مدّة العام ، وما يستعمل بدمشق الجميع منها يخزّنونه في حواصل معدّة له .

وينبت في الثلج الريباس ، وينبت في جبال الثلج أيضاً أمير باريس ، قال ابن البيطار هو البرباريس وبالفارسية الزّرشك . وينبت بهذا الجبل الصنوبر .

وثمّ أشياء لا تنبت إلاّ في الأراضي الحارّة كالقُلقاس ، فإنه يطلع بأرض قرية الغور من أعمال دمشق ولا ينبت في غيرها من أرض الشام . ومنها الموز وقصب السكّر .

(نزهة الأنام 345-356)

غوطة دمشق

قلت : وأما محاسن الشام [1] فإنها لا تحصى ، وغوطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى . وقد جاء في الأخبار عن كعب الأحبار رضي الله عنه : «غوطة دمشق بستان الله في أرضه» .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم تلا هذه الآية : ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ ، قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هيَ في الشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام . وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : «قال هي دمشق» .

قال الذهبي : وأجمع سوّاح الأرض والأقطار على أن متنزهات الدنيا أربعة ، وهي : (صغد سمرقند) و (شعب بوّان) و (نهر الأبلّة) و (غوطة دمشق) .

قال أبو بكر الخوارزمي في رحلته : رأيتها كلها فكان فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربعة على غيرهن ، كأنها الجنة وقد زُخرفت وصُوّرت على وجه الأرض .

---

(1) كُتب في محاسن الشّام وفضائلها مصنّفات جزيلة ، من أشهرها «فضائل الشام» للرّبعي .

وما أحسن قول الشيخ علاء الدين علي بن المشرف المارداني وقد أنشدنيه شقيقه ركن الدين محمد عند قدوم أخيه إلى دمشق المحروسة في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة :

ليس في الحسن للشآم نظير ... لايغرّنك بالبلاد الغرور
كلّ ما تشتهيه نفسك فيها ... وبها البشر والهنا والسرور
قلتُ للركب مُذ أنخنا عليها ... وتراءت ولدانها والحور
هذه الجنة ادخلوا بسلام ... بلدٌ طيّبٌ وربٌّ غفور

وقال الشيخ عبد الله الأرموي رحمه الله : دمشق من أي جهة أقبلتَ عليها تجدها حلّة بيضاء طرازُها أخضر .

وقال الشهاب محمود من رسالة : وأما دمشق فكأنها وجه الحبيب ، وقد دار به العذار الأخضر الرَّطيب .

وقال الشيخ عبد الولي الحضرمي رحمه الله : سُحْتُ البلاد ورأيت ما بها من الأعاجيب ، فلم أنظر كصغد سمرقند ، وهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر مقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها ، وهي في وسط مملكة ما وراء النهر . ورأيت شعب بوّان وهي بقعة مذكورة بنيسابور طولها فرسخان وقد التحفتها الأشجار ، وجاست خلالها الأنهار . وهذا الشعب لبوّان بن أيوح بن أفريدون ، وفيه يقول أبو الطيّب المتنبي من قصيدة تشتمل على وصفه :

يقول بشعب بوّان حصاني ... أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي ... وعلّمكم مفارقة الجنان

ومررتُ بنهر الأبُلّة وهي من أعمال البصرة ، طوله أربعة فراسخ وعلى جانبه بساتين كأنها بستان واحد قد مُدّ على خط الاستواء نخله كانه غُرس في يوم

واحد . ودخلت إلى دمشق وتنزهت في غوطتها ، أجدها أحسن من الثلاث وأكثرها خيراً ، طولها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها .

وقال الميدومي في كتابه (لطائف الأعاجيب) : كان بغوطة دمشق أشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالمشمش والخوخ ، والتفاح ، والكمثرى . وبها ما يحمل الثلاث وأقلّهن اللونان من الفاكهة .

قلتُ : وهذا موجود إلى يومنا هذا ، فإني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر ورأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الأبيض والأسود . وهذا من صنعة الفلاحة يسمى التطعيم ، وهو أن يُؤخذ قطعة خشب من التفاح ويُشق ساق شجرة كمثرى تكون بساقين ، وتوضع تلك القطعة في إحدى الساقين المشقوقة ، وتشدّها بخرقة وتسقيها وتعاهدها إلى أن تلحم بها ويخرج الورق الجديد ثم تثمر .

رَجْعٌ إلى بقيّة كلام الميدومي ، قال : وكان غرسُ الأشجار في بعض البساتين كالسُّطور التي تُقرأ . انتهى والله أعلم .

(نزهة الأنام 356-360)

صناعات دمشق

ومن محاسن الشام ما يُصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه . ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه [1] . ومنها عمل القماش الهُرْمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله . ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور ، وأموات القبور . وفيها أيضاً عمل القماش السَّابوري بجميع ألوانه وحُسن لمعانه .

(1) وهذا يُضارع ما أدركناه بعصرنا من أصناف البروكار والدّامسكو والأغباني والدّيما .

وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع . وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ أوصاله . وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغاتها المرضية . وفيها تعمل صناعة الزموط والأقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع . وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير . وفيها تعمل صناعة السلاح ، بما فيها من الأعاجيب والاقتراح . وفيها تعمل صناعة الموشّى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون . وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها صناعة ألواح الصقال ودهن ألواح صغار الكتاب ، وجفان القصع وتفصيل القبقاب .

وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصنّاع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى تتم .

واعلم أن هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ، ثم تعلمها الناس منهم وبعضهم من بعض ، وصارت وراثة من الحكماء والعلماء ومن العلماء للمتعلمين ومن الأستاذين للتلامذة للصناع . هكذا نقله ابن جماعة في شرحه على نقول العيد ، انتهى .

(نزهة الأنام 362-364)

قافات دمشق وخيراتها

ومن محاسن الشام ما يُحمل منها إلى الديار المصرية عشرة قافات انفردت بها ، وهذه مسمّياتها : قصب ذهب ، قبع ، قرضية ، قرطاس ، قوس ، قبقاب ، قراصيا ، قمر الدين من المشمش ، قريشة ، قنّب .

وكنت في هذا المحل أكتب ، وإذا بشخص خليع يغلب عليه الخَبَال والدخل يتردّد إلي من أهل مصر العتيقة يقال له «تعاتير» ، جاء إلي وقال : عبّر لي هذا المنام : رأيتُ الليلة في النوم رجلاً جليلاً من أهل الشّام ، أعطاني قَصعة بها آثار

قُطن فيه بعض قُضامة مربوطة بخيط قنّب . فأردتُ أن أُدخل عليه سروراً ، فقلتُ له : يا تعاتير ، من مناسبة الحال القضامة ، وهي ذهب وفضّة في وعاء مشدود معقود ، تناله من بعض رؤساء الشاميين . فسُرَّ بذلك وفارقني .

فأخذت أتعجّب من الاتّفاق وذكر هذه الأربعة قافات المجلوبة من الشام إلى القاهرة . وفيما أنا في مثل هذا السياق ، إذا أنا به في اليوم الثاني جاءني وهو يضحك ، فقلت : ما بالك وما خبرك ؟ قال : فارقتُك فأخذتُ لي قطعة جبن ورُطَب وجلست آكلهم برغيف في عقبة قدّام المقياس ، وإذا برئيس شامي في خدمته عبيد وغلمان نزل إلى تلك العقبة ، وقال للنوتي : اطلع بنا المقياس لنزوره ، وزوّرنا الآثار ، وقال لغلمانه : لاقونا بالخيل إلى الآثار . فنَهَرَني بعض العبيد وقال : ما تخرج ! فقال له سيّده : دعه يؤانسنا . وسألني عن اسمي ، فقلتُ له : الناس يسموني تعاتير ، وإنما اسمي أبو الخير . فتهلّل وجهه وقال : هذا المكان ما اسمه ؟ فأقول له كيت وكيت ، وهذا يُعرف بكذا .

إلى أن توجهنا إلى دَرَج الآثار وأراد الطلوع ، وإذا بمنديل سقط منه في المركب ، فبادرتُ لمناولته إياه ، فقال لي : أعط منه للنُّوتي ديناراً وخذه لك بما فيه . فقبّلتُ يده ، وقال لي : ما تروح معنا ؟ قلت له : مَرسومُك هذا النُّوتي ابن حارتي ، وأرجع معه . فقال : أُدعُ لنا . وتركته وأنا لا أصدّق من الفرح ، فقلتُ لبعض غلمانه : أيش يقال لهذا الرئيس بين الشاميين ؟ قال : هذا القاضي بدر الدين بن المزلّق [1] . فدعوتُ له وانصرفتُ أجد بالمنديل خمسة دنانير ذهباً وسبعين فضّة ، فدفعتُ للنُّوتي ديناراً ، وجئت لأتشكّر منك على تعبير المنام وأُخبرك بتفسيره . فقلت له : هذا أعجب من الأول . انتهى .

وغالب ما عددناه وأوردناه من محاسن الشام انفردت به دون غيرها ، ويُحمل منها لغالب البلاد لكثرة خيرها . ومن أعاجيبها أن خيرها في الغالب لغير بنيها ، حتى أنه يُنسي الأهل والأوطان ، ولو فارقها لعاد إليها على طول الزمان .

---

(1) بنو المُزَلِّق من أسر العلم الشهيرة بدمشق زمن المماليك ، لا ندري أين طوّح بهم الدّهر .

وقال القاضي الفاضل :

يقولون لي ماذا رأيتَ بشامهم ... فقلت لهم كل المكارم والفضل

فبلدتهم خير البلاد وأهلها ... بإحسانهم تُغني الغريب عن الأهل

(نزهة الأنام 364-367)

فصول السّنة بدمشق

ومن محاسن الشام أن كل نزهة ذكرناها ، لها أوان يتفرّج أهل البلد فيه ، وزمان يتعاهدونها به ويرجعون إليه . ومن محاسن الشام صيفيتها ، وأنها معلنة بحياة الأزهار ونمو الأثمار . وشتويتها مُؤذنة بموت الأشجار بالاصفرار ، وتغسيلها بعد التجريد بالأمطار .

لكن يعتدّون للشتاء بالأسمان والأدهان ، ويموّنون البيوت بالحبوبات ، ولحم القديد والمعسولات والفاكهة المعلقة ، والحلاوات المؤنقة . ويكنّون في الأماكن المبخرات ولا يخرجون منها .

فإنها بلدة كثيرة المحاسن ، وماؤها غير آسن . وهي مباركة وفيها البركة وعيشها رغد في السكون والحركة . ولكن استقري من كان مولده فيها لم يزل في قبض [1] ، ما دام بها إلا أن ينزل إلى تحت الأرض . ويقال إنه لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان .

(نزهة الأنام 368-373)

---

(1) يراد بذلك أن مناخ دمشق يورث الاكتئاب . راجع ما كتبه الحاج خورشيد المُسائل الحلبي في رسالته الطريفة : «مقولة كشف اللّثام عن أحوال دمشق الشام» ، في كتابنا هذا . أما قوله : لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان ، فيعني أن بها علّة الحسد والتباغض . ومن يقرأ أخبار الحسد بين علماء دمشق في كتب التراجم ، كالكواكب السائرة للغزّي ، مثلاً ، يجد في هذا القول نصيباً غير يسير من الصحّة ، للأسف !

بركات دمشق

ويُقال إن من قَصَدها بسوء ونواه أكبّه الله تعالى فيه وأعثره . ولما قدم عبد الله ابن علي بن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، دمشق وحاصر أهلها ، فلمّا دخلها وهدم سورها وقع منه حجر كان عليه مكتوباً باليونانية ، فأرسل خلف بعض الرهبان فطبعه وقرأه فإذا عليه مكتوب : وَيْكِ أُمُّ الجبابرة ، من رماك بسوء قصمه الله . وَيْك من الخمس الأعين ، نَقْضُ سُورك على يديه بعد ألف سنة . فوجدوا الخمس الأعين : عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب .

فهي بلدة كثيرة البركات غزيرة الخيرات ، نعْمَ بلدة الأنبياء وموطن الأصفياء والأولياء . وبها صحابة من الأجلاّء ، ومقابرها حوت أماثل الفُضَلاء .

(نزهة الأنام 373-374)

جبّانات دمشق ومن بها من السادات

ومنها جبّانة باب الصغير بها بلال الحبشي رضي الله عنه ، وبها السيدة سكينة بنت أبي بكر الصدّيق [1] رضي الله عنهما ، وبها السيدة زينب بنت الإمام علي رضي الله عنهما ، وبها معاوية رضي الله عنه ، وبها أُويس القُرَني رضي الله عنه ، وبها أبو عبيدة بن الجرّاح على ما قيل خارج الجامع المعروف به .

ويليها مقبرة محلّة القروانة ، وبها جماعة من الأجلاّء والفضلاء .

ومنها جبّانة باب شرقي ، بها أُبيّ بن كَعب ، رضي الله عنه ؛ وبها جبل ابن مُعاذ ، رضي الله عنه ؛ وبها ضرار بن الأزور ، رضي الله عنه ؛ في حارة السَّادة القدماء ، عفا الله تعالى عنهم .

---

(1) هذا غلط ، فالصواب أنها السيّدة سُكينة بنت أحمد السّبطي ، ولها في باب الصغير قبر يحمل كتابات كوفيّة فاطمية مشجّرة ، من أجمل روائع الخط العربي .

وتليها مقبرة الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وعنده جماعة من الأماثل والأجلاّء الأفاضل .

وخارج باب توما شرحبيل كاتب وحي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، والسيدة خولة [بنت الأزور] رضي الله عنهما .

وجبّانة بيت لهيا ، بها سادة وأعيان وصالحون لهم قدرٌ وشان .

ويليها مقابر باب الفراديس ، بها أبو الدحداح [الصحابي] رضي الله عنه ، وبها عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ، رضي الله عنهما .

ومقبرة سويقة صاروجا ، بها صالحون من أجلّ المسلمين .

ومقابر الصوفية ، بها جماعة من العلماء أئمّة الدين وصالحي المسلمين ، كابن الصلاح وابن تيميّة وابن المبارك ، وغيرهم .

ويليها مقبرة القنوات وباب السريجة ، وبها علماء الأمة وأهل الرحمة . آخرمن دفن بها شيخنا المرحوم العلاّمة محب الدين البُصروي الشافعي ، رحمه الله .

ومنها جبّانة الحمرية ، وبها المرحومون من الأولياء والصالحين .

ومنها مقابر محلّة السيدة عاتكة ، رضي الله عنها ، ويقال إن في ظاهرها ضريح الماسك لركاب النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، رضي الله عنه .

ومنها جبّانة محلة القبيبات ، وبها العلماء العاملون والمجاذيب والصالحون كالسيد الشريف الشيخ الزاهد العالم تقي الدين أبي بكر الحصني الشافعي ، أمدَّنا الله بمدده .

وهذه جملة المقابر التي في المدينة الخارجة عن مقابر الصالحية والقابونين وغيرذلك . وثَمَّ صحابةٌ في قرى الضواحي ، رضي الله عنهم ؛ كسعد بن عُبادة رضي الله عنه بأرض المنيحة ، وتميم الداري ، رضي الله عنه ، بقرية تميم التي

سمّيت به ، وأبو الدرداء رضي الله عنه ، فإنه داخل قلعة دمشق ؛ والسيدة زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وهي أخت أم كلثوم الكبرى التي تزوجها عمر رضي الله عنه ، وكانتا مع أخيهما الحسين لما قتل وقدمتا الشام . وهاتان والحسن والحسين ومُحسن الذي مات صغيراً أولاد الإمام علي من فاطمة ، رضي الله عنهما ، ثم تزوّج بعد موت فاطمة وتسرّى ، فجاءه بنون وبنات ، ومن جملة البنات زينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى . وهكذا ذكر شيخنا الحافظ برهان الدين النّاجي رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وقال الشيخ العارف أبو بكر الموصلي ، رحمه الله تعالى ، في كتابه (فتوح الرحمن) : توفيت السيدة زينب الكبرى بنت علي رضي الله عنهما بغوطة دمشق عقيب محنة أخيها ، ودُفنت في قرية من ضواحي دمشق أسمها راوية ، ثم سمّيت البلدة بها ، فالآن يقال للبلدة الستّ ولا تعرف إلا بقبر الست ، رضي الله عنها .

قال : وكنت أزورها في أول أحد من العام ، ومعي جماعة من أصحابي الفقراء ، ولا ندخل إلى قبرها بل نستقبله ونغضُّ أبصارنا ، لما قرّره علماؤنا في أن الزائر للميت يعامله كما لوكان حيّاً من الاحترام . فبينما أنا في البكاء والخشوع والحضور ، وكأني بها وقد تراءت لي في صورة امرأة كبيرة محترمة موقّرة لا يقدر الإنسان أن يملأ نظره منها احتراماً . فأطرقتُ فقالت : يا بُنيّ زادك الله أدباً ، ألم تعلم أن جدّي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه كانوا يزورون أم أيمن لكونها امرأة محترمة ؟ وبشّر الأمة أن جدّي محمداً وجميع أصحابه وذرّيته يحبّون هذه الأمة ، إلا من خرج عن الطريق فإنهم يبغضونه . فلحقني إزعاج [1] من كلامها غيّبني ، فلمّا عدتُ إلى الحسّ لم أجدها ، فواظبتُ على زيارتها إلى يومنا هذا . انتهى .

وبالقرية المذكورة ضريح السيد الجليل مدرك [الفَزَاري الصحابي] ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته .

---

(1) لا يريد بمعنى الإزعاج المضايقة ، وإنما الانبهار والدَّهشة لرؤياها ، رضي الله عنها .

وهذا الذي وصل إلينا من معرفة من بدمشق من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . وتَمّ فيها من الأنبياء والصحابة والأولياء الصالحين غير ما ذكرناه ، لكن لتوالي المحن واندراس العلم والمعاهد والدِّمَن وبانقراض المخبر انقطع الخبر فلا عينٌ ولا أثر .

وأما فضائل الشام فكثيرة ومحاسنها جمّة غزيرة ، وبركاتها مشهورة وأخبار خيراتها مأثورة . ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاتها وروضاتها وقطوفها الدَّانية للمتفكر في متنزهاتها ، وهيَّمنا إلى الدور في تسلسل أنهارها ونبّهنا الأحداق في حدائق أزهارها .

(نزهة الأنام 374-384)

* * * * *

مشهد في إحدى ضواحي دمشق القريبة

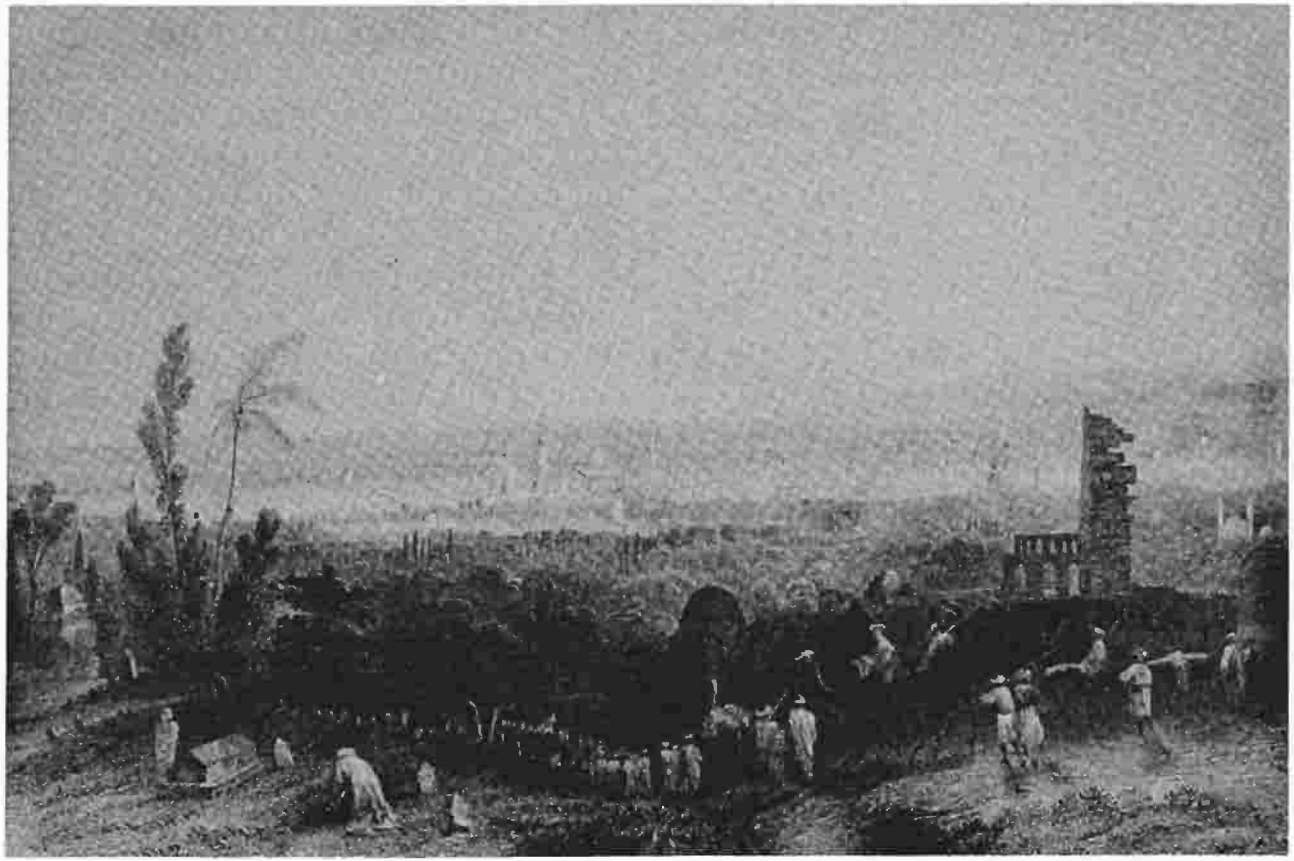

دمشق من غربي الصالحية ، ويبدو الجامع الأموي في الوسط

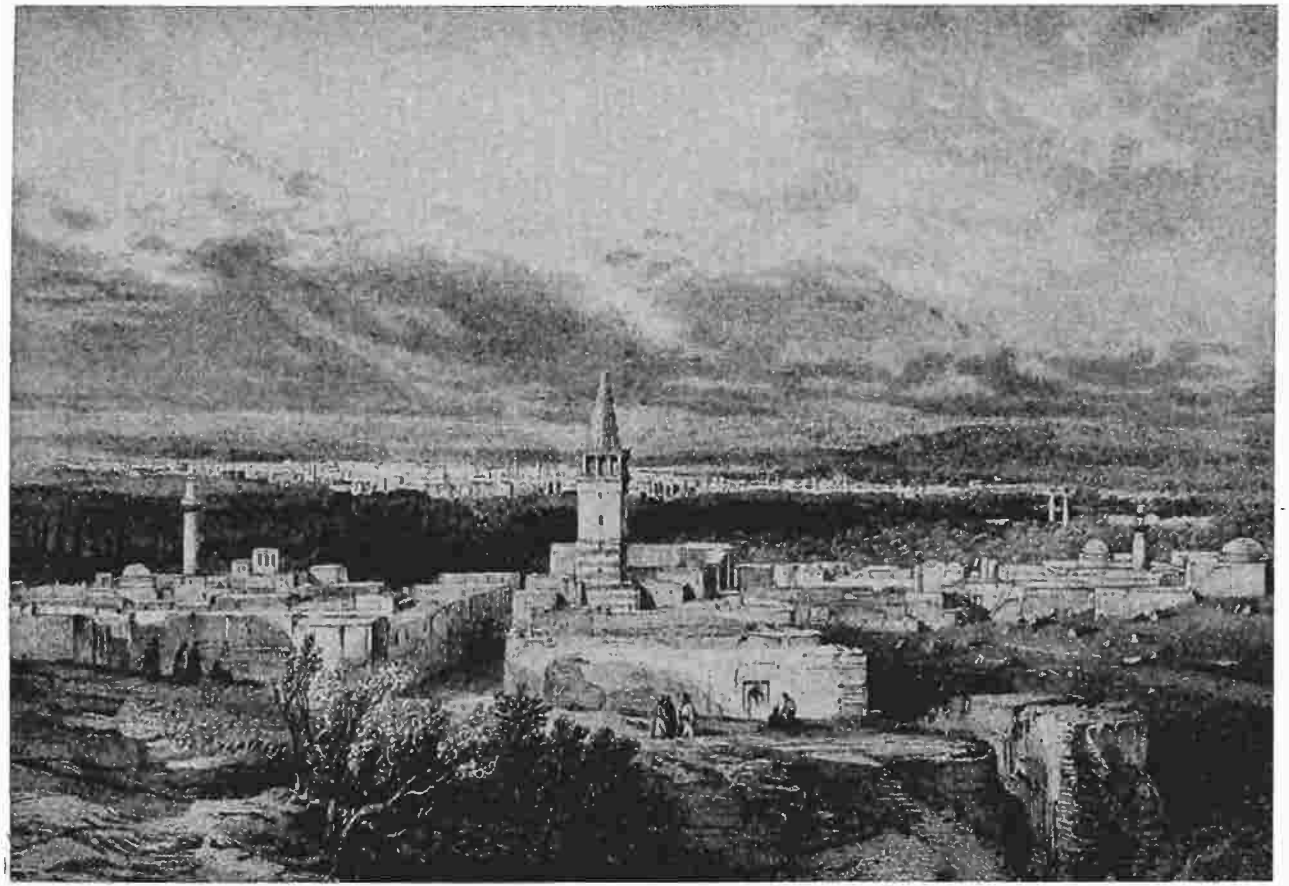

دمشق من أعالي الصالحية ، نقيشة من القرن التاسع عشر